حمدان خوجة تأثره بالفكر الأوربي التنويري ونظرته إلى الاحتلال الفرنسي
(بين إنسانية أفكار الثورة الفرنسية وجرائم الاستعمار)

أ/ مسعـود عـــــــــوادي
جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة

يعتبر حمدان خوجة[1] أحد روّاد الإصلاح السياسي والاجتماعي في العالم الإسلامي خلال القرن 19م. عُرف بتفتّحه على ثقافة العصر وإدراكه لعوامل تطوّر المجتمعات ودعوته إلى الإصلاح ومسايرة الحضارة الحديثة، فسبق بأفكاره العصر الذي عاش فيه، إضافة إلى كونه مناضلاً من الرّعيل الأوّل, الذين وقفوا في وجه الاستعمار الفرنسي للجزائر، فقاومه بكل ما أوتي من حنكة وخبرة سياسية وفطنة فكرية، فكان دفاعه هذا لا يقل أهمية عن دفاع قادة المقاومة الجزائرية المسلّحة.

أ- رحلات حمدان خوجة إلى أوربا وتأثّره بالأفكار اللّيبرالية:

كان حمدان خوجة ميّالاً إلى الأسفار، ومحبًّا للتجوال في البلدان الأجنبية (الأوربية والإسلامية)، وهدفه في ذلك ممارسة النّشاط التجاري والتزوّد من مناهل المعرفة، فمكّنته هذه الرّحلات من زيارة العديد من البلدان مثل: تركيا، تونس، البلقان، فرنسا، إنجلترا، واسبانيا، وقد تحدّث حمدان عن رحلاته في كتابه (إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء)[2]، فقال: "كنت قد تجشّمت أسفارًا صرفت فيها برهة من العمر، لولا اهتمام النّفس لعدّها من صالح أعمالي ..."[3]، ولعلّ أوّل رحلة قام بها وهو صغير السن كانت إلى استانبول عام 1784، عندما أرسله والده إليها من أجل تثقيف نفسه، وتعلّم اللّغة التركية، وتحصيل ما تيسر له من العلوم السّائدة في ذلك العصر[4].

أمّا أغلب رحلاته فقد كانت نحو أوربا، التي كانت تعيش حينها تحوّلات في بنيتها الحضارية، تمثّلت في بروز أنظمة سياسية واقتصادية وحركات فكرية جديدة، وقد أشار إلى رحلاته نحو أوربا ومعايشته لتمدّنها فقال: "لقد تجوّلت في أوربا كثيرًا وقدّرت الأمم الحرّة لمنفعة الطّباعة، وجدارة الشّعوب المتمدّنة بالصحافة والنّشر..."[5]. تمّت معظم هذه الزيارات

صوب باريس، التي زارها أوّل مرّة عام 1820م، واستقرّ بها ثلاث سنوات، فأشاد بها كثيرًا في مؤلّفاته، واعتبرها مركزًا للحضارة العريقة، وللمدنية الحديثة.

مكّنته هذه الزيارات من الاحتكاك بشخصيات فكرية وسياسية هامّة، كان أبرزها لقاءه بلويس فيليب -قبل أن يصبح ملكًا على فرنسا- وخلال المدّة التي استقرّ بها حمدان في باريس، خصّص وقته إلى تعلّم اللغة الفرنسية واكتساب بعض العلوم المنتشرة بها، فباريس كانت آنذاك تعجّ بالأندية الأدبية الغاصّة بالعلماء والكتّاب والمثقّفين، ومن المحتمل أن يكون حمدان قد زار باريس عدّة مرات في إطار مهمّات دبلوماسية, كونه كان مستشارًا للدّاي حسين وممثّلاً للدّولة الجزائرية في البلدان الأوربية. وفي عام 1833م، عاد إلى باريس، غير أن زيارته في هذه المرّة كانت مختلفة عن سابقتها، حيث كانت شبه إجبارية، واختلفت فيها نظرته إلى فرنسا بحكم الظروف الجديدة, فهو قد اتّجه إلى باريس تاركًا بلاده تحت نير الاحتلال الفرنسي، فبعدما أن فشلت محاولاته في وقف هذا الاحتلال، وإقناع الفرنسيين بالتخلّي عن استبدادهم لأبناء وطنه، انتقل إلى باريس ليواصل نشاطه النّضالي، وليقدّم صورة واضحة للرّأي العام الفرنسي، والهيئات الحكومية الفرنسية عمّا يجري في الجزائر من انتهاكات وتجاوزات[6].

بالإضافة إلى هذه الرّحلات المتعدّدة إلى فرنسا، كانت له زيارات أخرى إلى دوّل أوربية مختلفة، مثل اسبانيا التي زارها مرّتين, وجولاته في بعض الولايات الإيطالية[7]، وعلى حدّ قول الفرنسي بيشون (Pichon)[8], فإنّ حمدان كان يتردّد كثيرًا على إنجلترا في إطار مهمّاته السياسية، وممارسة التجارة[9].

لم يكن حمدان متغافلا في أسفاره عن الأمور التي تستدعي الانتباه، خاصّة مظاهر المدنية الأوربية، من عمران وصنائع وأفكار وأنظمة، فبتواجده في أوربا سواء في مهمّاته الدّبلوماسية أو نشاطه التجاري أو في سبيل نضاله السياسي, كان يتجول في المدن ويزور المصانع ويحضر بعض المجالس السياسية، ويرتاد أعظم المكتبات، ويطّلع على أمّهات الكتب الفكرية، ويجتمع بأعلام الثقافة وزعماء السياسة وروّاد الإصلاح[10]، وهوّ ما أكّده بقوله في كتابه (إتحاف المنصفين...): "مع قلّة الزاد وتشتّت البال بالاغتراب عن الأهل والأولاد، فاستحدث الفكر الكليل، وأجهدت الفهم العليل، وأضربت عن طول العهد بالمطالعة والتحصيل"[11].

اكتسب حمدان جرّاء رحلاته المتعدّدة ثقافة واسعة ومتنوّعة، وتجارب ثمينة، خاصّة فيما يتعلّق بالفكر السياسي الحديث، والمفاهيم اللّيبرالية، وهي ثقافة أهّلته إلى التعايش مع أهم

التيارات الفكرية والسياسية التي كانت سائدة في أوربا. كما مكّنته من اكتساب أفق فكـــري متفتّح، مكّنه من فهم وتحليل الأفكار الحديثة والعناصر اللاّزمة لتطوّر المجتمعات, خاصّـــة وأن هذه الرّحلات تمّت باتجاه محورين فاعلين في ميزان القوى العالمية آنذاك، واللّذان شهدا تحوّلات عميقة، هما أوربا التي أحدثت تطوّرًا حضاريًا مبهرًا، وعرفت أحداثًا هامّة (الثورة الفرنســية، الثورة الصناعية...)، وما نتج عنها من تيارات فكرية، والمحور الثاني يتمثّل في الدّولة العثمانية مركز الخلافة الإسلامية, التي كانت تتفاعل مع المتغيّرات الدّولية وتعمل من أجل الانفتاح على أوربا، وتخوض إصلاحات جذرية [12]، وبذلك فإنّ فكره قد استوعب أهم الأحـــداث الـــتي عرفها العالم آنذاك.

تأثّر حمدان بما شاهده وعاشه في أوربا، وأُعجب بتمدّنها وأفكارها، لهـــذا نجـــده يشـــيد بحضارتها المادّية والفكرية في أغلب مؤلّفاته خاصّة (إتحاف المنصفين) و (المرآة)[13]، غـــير أن تأثّره كان أشد بالمبادئ اللّيبرالية من حرّية سياسية وقيّم إنسانية، وحقوق قومية، وتنظيمـــات سياسية واجتماعية, وهو ما عبّر عنه في كتابه المرآة، حين قال: "عشت في أوربا وتذوّقت ثمرة مدنيتها وأنا واحد من المعجبين بالسياسة المتّبعة في كثير من الدوّل الأوربية..."[14].

لعلّ أهم ما تأثر به هو التنظيمات السياسية المحكمة التنظيم والمؤسّسة على العدل والحرّيـــة, فقال في هذا الصدد: "وعندما سافرت إلى أوربا اطّلعت على أسس حرية الأوربيين الـــتي هـــي الرّصيد الأوحد لحكومة نيابية جمهورية، وقد وجدت هذه الأسس مماثلة للأسس التي بُنيت عليها شريعتنا. نعم يوجد بينهما اختلاف دقيق جدًا عند التطبيق, ولكن كلّ من له معرفـــة حقيقيـــة بأسس الطرفين يدرك أن هناك توافقا وتطابقا بينهما ..."[15]. ومن خلال هذا النّص يتّضح لنـــا بأن حمدان كان يتمتّع بحاسّة النّقد والبناء، والقدرة على التمييز بين المفاهيم واســـتيعابها، وأدرك بأنّ الشّرائع السماوية متّحدة الأهداف، وأنّ القوانين الوضعية جاء بها العقل البشري، فاختلفت الأمم في فهمها وفي تطبيقها، فالأوربيون قد فهموها فهمًا ملائمًا لعصرهم ولبيئتـــهم فأحســـنوا استخدامها، أمّا المسلمون فقد أعرضوا عن مقتضيات العصر، و لم يطبّقوا الشّـــريعة الإســـلامية بشكلها الصحيح، فكان ذلك سببًا في تأخرهم [16].

من خلال هذا يتبيّن مدى احتكاك حمدان بالحضارة الأوربية وفهمه لفكرهـــا السياســـي الحديث، ووعيه بدور الحرّية في بناء حكومات جمهورية قويّة ممثّلة من طرف الشّعب ومعبّـــرة عن إرادته, لأنّها قائمة على أساس اختياره الحر، كما نوّه إلى أن هذه القيّم (الحرّية السياسية

والديمقراطية)، موجودة في الشّريعة الإسلامية التي تقرّ بالحكم الشّوري القائم على العدل والحرّية،غير أنّ المسلمين لم يجسّدوها في أنظمتهم السياسية، و لم يلتزموا بمبادئها كما يجب [17].

يؤمن حمدان بأن الحرّية هي أساس كل نظام ناجح، ويعتبرها عاملا أساسيا في قوّة الدّولة، فوجودها كفيل بدوام أي نظام، وهذا ما دفعه – في إطار دفاعه عن القضية الجزائرية – إلى تذكير فرنسا بمبادئ ثورتها المؤسّسة على الحرّية والعدل، وأن ممارساتها في الجزائر تعارض تلك المبادئ، وإن واصلت في استبدادها وظلمها فإن نظامها سوف يزول، لأن العدل خالد أزلي. وبذلك يكون حمدان قد تنبّأ بزوال الحكم الفرنسي في الجزائر مستقبلاً [18]، وهو ما تأكّده رسالة كان قد بعث بها الجنرال فوارول Voirol من الجزائر إلى وزير الحرب الفرنسي عام 1834م، يقرّ فيها بأنّ حمدان يبيّن برسائله للجزائريين بأنّه على فرنسا الانسحاب من الجزائر، وأنّها ستفعل ذلك عاجلا أم آجلا[19].

كما تأثّر حمدان وتشبّع بالفكر القومي والوطني الذي كان سائدًا في أوربا خلال القرن 19م، وتعرّف على مقوّمات وكيفية تحقيق القومية من طرف بلدان أوربية عديدة، فقد اطّلع على الفكر القومي وتعمّق في فهم عناصر تكوينه، وأدرك بأن الحرّية أساس لتجسيد القومية، وأكّد على أن لكل شعب الحق في الاستقلال وتأسيس أمّة وقومية متحرّرة إن كان مؤهلاً لذلك، فكلّ شعب له لغة ودين وعادات يختلف بها عن الشعوب الأخرى، يحقّ له تكوين وطن مستقل وقومية تمثّل هويته، وهو ما حقّقته عدّة دوّل على أرض الواقع، عكس الشّعب الجزائري الذي حرمه الاستعمار الفرنسي من ذلك، وهو ما أشار إليه في كتابه (المرآة) حين قال: "عندما أتأمّل في أوضاع الشعوب الأخرى، لا أجد من بينها شعباً محكوما عليه بأن يقاسي مثلنا، فأرى اليونان قد أستجيب إلى استغاثته وجُمع شمله, وأرى الشعب البلجيكي قد انفصل عن هولندا بسبب اختلاف في بعض أصول سياستهما وديانتهما، ورأى جميع الشعوب الحرّة تعتني بـ (بولونيا) من أجل استعادة جنسيتها إلى الوجود، وإنني لأرى كذلك حكومة انجلترا تخلّد مجدها وتثبّت شرفها بتحرير الزنوج"[20].

أراد حمدان من خلال طرحه لهذه الحقائق أن يثبت أحقية الشّعب الجزائري في استقلاله وتكوين قومية متحرّرة، فنوّه إلى الاختلاف بين الشعبين الجزائري والفرنسي في الدّين واللّسان والعوائد، وهي اختلافات تشكّل حاجزًا منيعًا بينهما، وأنه سوف يستحيل على فرنسا أن تفرض

أفكارها وهويتها على الشّعب الجزائري، لهذا يستوجب عليها قبول مطالب الجزائريين المتمثّلة في حرّيتهم في تأسيس وطن لهم, يكون مستقلاً عن فرنسا[21].

فهو تأثّر بفكرة القومية والوطنية، وكان من أوائل الدّعاة إلى الحركة الوطنية، وإلى استقلال الشخصية الجزائرية عن المستبد، وكان غيورًا على وطنه ومتحسّرًا على ما لحق به من ظلم، فنجده يعتزّ بجزائريته وينسب نفسه إلى الجزائر في جميع مؤلّفاته ورسائله[22]، كما أكّد على أنّه مستعد للدّفاع عن وطنه بكل ما أوتيّ من قوّة، ومستعد للتّضحية في سبيله بأمواله وبجهده[23]، وهو ما جسّده إلى حدّ كبير من خلال نضاله السياسي المستميت، كما أن وطنيته هي التي دفعته إلى تأليف كتابه (المرآة)، الذي أبرز من خلاله معاناة الشّعب الجزائري، وفضح فيه وحشية الاستعمار الفرنسي، واستنهض به همم الجزائريين، فقال في مقدّمته: "إن أنباء الآلام التي يقاسيها أبناء وطني لتصكّ مسامعي من حين لآخر، وهي التي دفعت بي أن أجدّد شجاعة بعض التّعساء منهم وأنهض بمعنوياتهم ..."[24].

كما اعتبر حمدان أنّ مواليد الجزائر هم جزائريون مهما اختلفت أجناسهم، ونادى بجزائر للجزائريين، سواء أثناء الحكم العثماني أو إبان الحكم الفرنسي، وكان دافعه إلى هذا المطلب أثناء الحكم التركي هو رفضه لنمط الحكم وفساد الحكّام الأخيرين، الذين خرجوا عن مبادئ حكم الأتراك الأوّلين، الذي كان مبنيًا على العدالة والدّفاع عن المسلمين، ومضبوطًا بقوانين إسلامية، كما رفض الحكم الفرنسي لأنه مستبد وظالم، ولا يمدّ بصلة مع الجزائريين, لا في الدّين ولا في العادات وغيرها من مقوّمات الثّقافة الإسلامية العربية[25]. وبهذا فإنّ حمدان كان يسعى من وراء نضاله السياسي إلى إعادة الحكم للجزائريين أنفسهم، ودعا إلى ذلك صراحة، عندما قال: "لا يقلّ عدد الجزائريين الجديرين بتنظيم دولة تضمّ التقاليد الإسلامية، وأسس الحرّية..."[26].

وبهذا يعتبر أبًا روحيًا للقومية المغاربية المعاصرة، فهو من أوائل المفكرين المغاربة الذين اطّلعوا على مفهوم القومية والوطنية الحديثة[27]، فقام بتسريبها عبر سطور كتابه (المرآة)، الذي ملأه بأفكار قومية تحرّرية في إطار ردّه على الاستعمار الفرنسي[28]، فأصبح أحد أبرز أبطال القومية العربية الإسلامية وأبرز روّاد الوطنية الجزائرية.

ب ــ دعوة حمدان خوجة إلى الانفتاح على التمدّن الأوربي والاقتداء به:

بعدما اطّلع حمدان على مقوّمات الحضارة الأوربية، وتأثّر بأفكارها، وأدرك إيجابياتها دعا إلى الأخذ ببعض جوانبها, وحبّذ لو أن الأمصار الإسلامية تقتدي بعلوم وأفكار الأوربيين الذين اكتسبوا مهاراتهم من خلال التجارب التي مرّوا بها في تطوّرهم الحضاري، وتوارثوا العلوم والصّنائع والتنظيمات المهمّة، فزاد آخرهم عن أوّلهم وأخذوا عن غيرهم من الأمم حتى وصلوا إلى ما هم عليه[29].

لا يرى حمدان مانعًا في الاقتباس عن الحضارة الغربية في الأمور النّظامية والانجازات العلمية، لما فيها من خير للعباد وصلاح للبلاد، ما دامت غير مصادمة للثقافة العربية والرّوح الإسلامية[30]، فطلب الحكمة حسبه لا يتعارض مع الشّريعة، ويتوجّب أخذها أينما وُجدت, ومن أيّ قوم أو جنس، وهذا ما أكّده حين قال: "كما أقول أنّ الحكمة لا يستكنف العاقل من اقتنائها، لضعة من فعلها أو قالها، بل يبادر للحق وقبوله، واستجلاء النّفع والحصول عليه..."[31]، ثم أنّ الأوربيين قد استعانوا في بناء حضارتهم على تجارب أسلافهم، وتجارب الأمم الأخرى، فهم اعتمدوا بشكل كبير على الكتب الإسلامية في علوم الطب والنّجوم والحساب، لهذا تعجّب من إعراض بعض المسلمين عن الأخذ بمعالم حضارة الأوربيين. وأكّد على أنّ هناك الكثير من علومهم وتنظيماتهم لا تختلف مع ما تدعوا إليه الشّريعة الإسلامية، ونوّه إلى أن بعض الأمور لا تتوقّف معرفتها على الشّرع فقط، بل قد يثبت بعضها بالإلهام وبعضها الآخر بالتجربة، لذلك يجوز الأخذ عن ما وصل إليه الأوربيون في تجاربهم وعلومهم الوضعية، شرط ألاّ يتعارض ذلك مع قواعد شريعتنا[32].

اتّفقت بعض الشخصيات مع حمدان في هذه الآراء والمواقف، والتي دعت إلى الانفتاح على الغرب، والاستفادة من خبراته، فهذا ابن العنّابي الجزائري[33]، كان قد طرح أفكاره التنويرية في كتابه (السّعي المحمود في نظام الجنود)[34]، والمتمثلة في وجوب الإقتداء بالأوربيين في الأمور الدّنيوية[35]، خاصّة ما تعلّق بالصناعة الحربية، وتنظيم الجيوش وكل ما جاء به الأوربيون في هذا المجال تنظيمًا وتقنيًا, وأرجع سبب التفوّق العسكري الأوربي إلى "... ترتيب أجنادهم على طريقة محكمة ابتدعوها، وتدرّبهم على فنون حيّل اخترعوها..."[36]، فابن العنّابي يرى أنّه لا حرج في اقتباس ما تحتاج إليه الأمّة الإسلامية من الأوربيين، خاصّة إن كان في خدمة وحماية الدّين الإسلامي، ومن خلال هذا يتّضح لنا بأن تركيزه على الجانب العسكري لم يكن فقط

من باب الإعجاب، بل كان رغبة منه للتجديد في العالم الإسلامي، وتحديث إمكانياته الدّفاعية.

وفي إطار دفاعه الدّائم على الانفتاح، فقد دعا حمدان إلى نبذ التعصّب السائد في وقته، والذي هو نتيجة لموقف بعض الرّجعيين الذين أغلقوا باب الاجتهاد والتجديد، واكتفوا باجترار معارف العلماء السابقين دون فهمها، وأنكروا كل ما توصّل إليه الغرب في العلوم التجريبية والطّبّية والرياضية، متحجّجين في ذلك بعدم جواز تقليد الكفّار[37]، غير أنّ حمدان تصدّى لتلك الأفكار، واعتبر أنّ التعصّب والانغلاق هما سبب تخلّف المسلمين، لذلك حثّ الحكّام وولاّة أمور المسلمين على التجديد، وإحداث إصلاحات على أجهزة الدّولة والمجتمع من أجل مواكبة الحضارة الحديثة[38]. إذا دقّقنا النظر في الأفكار التقدّمية التي طرحها حمدان فإنّنا نجدها شبيهة إلى حد كبير بالأفكار التي جاء بها رفاعة الطّهطاوي، في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، فكلاهما كان يدعو إلى التقدّم الحضاري وفتح أبواب البحث في أسباب الرّقي، و كلاهما اجتمع على مبدأ ضرورة تقبّل العالم الإسلامي لفكرة الأخذ عن مزايا الحضارة الأوربية[39].

وبهذه الروح المتفتّحة والفكر العميق اللّذان تميّز بهما حمدان خوجة، فقد تمكّن من استيعاب المفاهيم الحديثة السياسية منها والاجتماعية والفلسفية، وبناء فكره على استخلاص المسببات واستنتاج العلل، واستخلاص العبر، ومكّنه كل هذا من إدراك خطر التعصّب، الذي كان سببًا في تخلّف المسلمين، فدعا إلى التفتّح الإيجابي الذي يخلّص العالم الإسلامي من تخلّفه الحضاري[40].

ج – موقف حمدان من الحضارة الفرنسية وردّه على الاحتلال الفرنسي بسلاحه (أفكار الثورة الفرنسية)

إذا أردنا أن نستخلص موقف حمدان خوجة من التمدّن الأوربي عامّة، والسياسة الفرنسية خاصّة، فإنه يتوجّب علينا الإحاطة بعدّة جوانب حدّدت وكوّنت ذلك الموقف، فنظرته للحضارة الأوربية قبل احتلال الجزائر تختلف عن نظرته لها إبان عهد الجزائر المحتلّة، أمّا العامل الآخر الذي حدّد نظرته تجاه أوربا، هو طبيعة سياستها تجاه مواطنيها وشعوبها من جهة, وسياستها تجاه الشّعوب الأخرى التي تحكمها من جهة أخرى، فحمدان كان ينظر إلى الحضارة الأوربية من زاويتين مختلفتين ومتناقضتين، وهذا ما يدلّ على امتلاكه لحاسّة النّقد الثاقبة،

والتزامه بالموضوعية بعيدًا عن العنصرية، فهو بيّن محاسن الحضارة الفرنسية فأشاد بها، وبيّن سلبياتها فمقتها[41].

كان حمدان ينظر إلى فرنسا على أنّها رمزًا للمدنية الأوربية، ومرتعًا للحرّية، ومنبتًا للقوانين الإنسانية والحقوق البشرية, وأشار في عدّة مواقع إلى أنه من شيّم الفرنسيين الجود وعزّة النفس، وإضمار المحبّة البشرية، والدّفاع عن الحرّية وحبّهم الشديد لها[42]، وهي قيّم أشيعت في فرنسا وأماكن تواجد الفرنسيين، وكان حمدان مولعًا بتلك القيّم بحكم تفكيره العصري، وبحكم انجذابه إلى كل ما يتطابق مع مبادئ الشّريعة الإسلامية من حيث المساواة في الحقوق ورعاية قيّم الإنسان[43].

تواصلت نظرته الإيجابية تجاه الحضارة الفرنسية حتى أثناء الأيام الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر، وذلك قبل أن يكتشف نواياها الاستعمارية، فكان يُطمئن الجزائريين ويحثّهم على عدم التخوّف من فرنسا، التي سوف لن تسمح لها قوانينها القائمة على الحرّية والمساواة من مسّ دين الجزائريين وعقائدهم، وأنّه لا خوف من أمّة لها باع طويل في الحضارة الإنسانية، ولها شأن عظيم بين الأمم في التمدّن [44].

غير أن حمدان اصطدم فيما بعد بنوايا فرنسا الاستعمارية، ووقف على حقيقة ممارساتها الغير إنسانية، وعناد إدارتها في الجزائر، التي داست على حرمة معاهدة جويلية 1830م، وخالفت كل التعهّدات التي قدّمتها للجزائريين على لسان قائد الحملة (بورمون Bourmont)، الذي أخبرهم بأنّه ليس بمستعمر، ووعدهم بالأمان والحرّية في ممارسة نشاطاتهم وعقائدهم، وأنّ الفرنسيين سوف يحترمون دين الجزائريين، ويصونون أهلهم ومالهم وممتلكاتهم[45]، غير أنّه لا شيء من هذا القبيل تحقّق في الواقع، ففرنسا التي ادّعت المدنية خالفت تلك الوعود، وانتهكت كل القوانين والشّرائع، وداست على القيّم الإنسانية التي تفتخر بأنها داعية إليها، فبمجرد دخول جيوشها إلى الجزائر، قامت بتدنيس مقدّسات الجزائريين وسلبت ممتلكاتهم، وقمعت حرّية التعبير والتديّن، وارتكبت مجازر في حقهم وكان أشدّها وقعًا إبادة قبيلة العوفية[46].

نتيجة لهذه المعطيات الجديدة تغيّرت نظرة حمدان إلى فرنسا، فبعدما كان يرى فيها رمزًا للحضارة والإنسانية أصبح ينظر إليها على أنّها رمزًا للظّلم الذي مورس على أبناء وطنه، ورمزًا لهضم الحقوق المدنية وانتهاكها، ومثلا للسّلب والاستبداد. وهي تصرّفات دفعت بحمدان إلى النّضال من أجل فضح الممارسات الفرنسية ضدّ الشعب الجزائري، وكشف الحقيقة عنها، وعن

ما تدّعيه من مدنية وحرّية، وحمّلته كذلك على مصارحتها علانية بوحشيتها[47]، واعتبارها خائنة للأمانة التي حملتها، والمتمثلة في المبادئ الإنسانية النّبيلة، فهي بدلاً من أن تثبت أنها أكبر دولة شريفة النفس، استغلّت قوّتها واعتمدت على سطوتها، فعاملت الجزائريين معاملة غير متساوية مع مواطنيها، متناسية قوانين حقوق الإنسان، التي تقتضي المساواة بين جميع أفراد البشر[48]،

ومن أجل تقريب الصورة أكثر والكشف عن سياسة التمويه الفرنسية، قام حمدان بربط هذه السياسة بنماذج من ممارسات رجال سياستها، الذين يناضلون في فرنسا من أجل الحرّية، إلا أنهم يمارسون الظّلم والاستبداد في الجزائر، ثم تساءل إن كان هؤلاء يريدون حكم الجزائر بمقتضى قوانين نابليون, أم بموجب قوانين الإقطاعيين, وتساءل عن السبب الذي دفع بحكومة متمدّنة أن تسمح لرجالها كي يصبحوا أثرياء بواسطة التعدّي والسلب وعلى حساب الشّرف الفرنسي[49].

اتّبع حمدان في نضاله السياسي وفي نشاطه للتعريف بالقضية الجزائرية، وفي ردّه على المستعمر أسلوبًا ذكيًا، فنجده دومًا يفتتح كتاباته ومراسلاته بتذكير فرنسا بمبادئ ثورتها وقيّمها الإنسانية، كالعدل والنّبل والحرّية، حتى يبيّن لقادتها وللعالم مدى مخالفة السلطات الاستعمارية في الجزائر لتلك المبادئ[50]، كما اعتمد على أدلّة واقعية لإثبات شرعية دفاعه عن القضية الجزائرية، وفضحه للممارسات الاستعمارية الغير إنسانية، فقام بمقارنة حالة الشّعب الجزائري الرّازح تحت نير القهر والاضطهاد ببقية شعوب أوربا التي تنعم بالحرّية والعدالة الاجتماعية، وتتمتّع بثمار الحضارة والمدنية المعاصرة، فهو بذلك يؤنّب القوى الأوربية وخاصّة فرنسا التي تطبّق العدالة تجاه شعوبها وتعترف بالحقوق البشرية، وتنادي بتحرير الشّعوب، وفي المقابل تقوم بكل ما هو مخالف لتلك الأصول التحرّرية في الجزائر[51].

بعدما أن عرض حمدان تجاوزات السلطات الفرنسية في الجزائر، تساءل إن وجدت دساتير وقوانين تقبل بهذه الأعمال، وإذا كان شرف الأمّة الفرنسية راضيًا بذلك، فما بقي على الجزائريين سوى الصبر، طالما أن هذه الأفعال تعاكس جميع الأسس لقانون الإنسان، وتأباها القيم الحرّة للأمّة الفرنسية[52]، وفي الأخير يترك لقرّائه أن يحكموا على ما يحدث في الجزائر باسم فرنسا التي تدافع عن مصالح الشعوب وتحارب الحكم المطلق وتظم كوكبة من المفكّرين ورجال الحرّية وحقوق الإنسان، خاصّة أن هذه الأعمال قد أُرتكبت في غضون القرن التاسع

عشر، عصر الحرّية والمدنية الأوربية، كما أكّد بأن ممارسات السلطات الفرنسية تجاه الجزائريين سوف لن تزيدهم سوى اندفاعًا نحو المقاومة، وعزمًا في الثّبوت على تعصّبهم، لأنهم يرون في فرنسا احتلال وخطرًا على هويتهم، وهذا ما سوف يقف حاجزًا أمام ما تدّعيه فرنسا من رغبتها في نشر المدنية والحضارة في الجزائر[53].

ولعلّ أهم شيء قام به حمدان واجتهد فيه هو فضح سياسة فرنسا المقنّعة القائمة على التمويه والمراوغة، فهي تدّعي نيّتها ورغبتها في منح الجزائريين ثمرة مدنيتها، وأن تحقّق لهم الحرّية والديمقراطية، وأنها سوف ترقى بهم إلى مصاف الأمم المتحضّرة [54]، ومن جهة أخرى تستعبد هذا الشّعب وتضربه في مقوّماته، وفي أركانه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، فزادته فقرًا وتخلّفًا, كما أكّد حمدان على أن العالم الذي يدعوا إلى الحرّية هو من لا زال يستعبد الشّعوب المغلوب على أمرها، ويغتنم فرصة ضعفها ليزيدها ضعفًا[55]. لذلك انتقد بشدّة تلك المدنية التي تدّعيها فرنسا ومثيلاتها من القوى الإمبريالية، لأن المدنية الحقيقية حسبه ليست متوقّفة على أنماط الجلوس وأزياء الملابس، وليست مجرّد ألفاظ وعبارات، وليست هي التي ينبغي نشرها في شمال إفريقيا، لأن المدنية في المفهوم الإسلامي تعني تساوي البشر وتمتّعهم بالعدالة على السّواء، ومساهمة جميع الأفراد في البناء الحضاري والسعادة الإنسانية, وهي مدنية لا يمكن أن يجسّدها إلا رجال محنّكين درّبتهم التجارب[56].

كان حمدان يعتزّ بمطالبه النّبيلة الرّامية إلى تحرير الجزائريين من مخالب الظلم والاستبداد، واعتبرها مطالب شرعية وشريفة، خاصّة أنه يتوجّه بها إلى فرنسا التي ساعدت الشعب اليوناني والبلجيكي، ومعظم شعوب العالم على استقلالهم، لهذا يتوجّب عليها أن تعترف بأحقية الجزائريين في الاستقلال، كونهم جزءًا من المجتمع البشري، ولهم الحق في الاستمتاع بالحرّية كبقية شعوب العالم[57].

من خلال هذا العرض، يتّضح لنا بأنّ حمدان خوجة كان يتميّز بأفق فكري واسع، وأنّه كان مطّلعًا بشكل جيّد على المفاهيم الحديثة والثقافة العصرية، ففهمها فهمًا يمكّنه من النّقد الإيجابي، والتمييز بين ما يُقال وما يُمارس، فامتلك القدرة على الرّد المناسب بالحجج والأدلّة المقارنة، ووضع حلول وأفكار إصلاحية.

د – فكره الإصلاحي ومشاريعه النّهضوية.

يُعتبر حمدان من أوائل المسلمين الذين طرحوا قضية التجديد والإصلاح السياسي والاجتماعي، والانفتاح على العصر، فهو قد سبق معاصريه في هذا الشّأن، أمثال رفاعة الطّهطاوي وخير الدّين التونسي، وجمال الدّين الأفغاني...[58]، والأهم من ذلك أنه طرح هذه الأفكار في وقت ضرب فيه الجمود الفكري أطنابه في العالم الإسلامي، ولعلّ ما ميّزه في طرحه لهذه القضايا هو عدم اكتفائه بوصف وتحليل أفكاره وآرائه، بل قدّم مشاريع عمل، ومخطّطات إصلاحية يريد بها إخراج العالم الإسلامي من غيبوبته الحضارية[59].

جعل حمدان من الحداثة والانفتاح شرطين أساسين في العملية الإصلاحية، وعاملين ضرورين لنجاحها، وأكّد بأن لكلّ عصر متطلّبات وخصال جديدة، وأنه أثناء ظهور عادة حديثة وجب التخلي عن الأمور القديمة التي لا تواكب العصر، وذلك لتفادي حدوث الاضطرابات، وعرقلة تسيير دواليب الإدارة، ولإدراك حمدان لهذه الأمور عمل على تنبيه الحكّام لهذه القاعدة الهامّة، التي ستمكّن العالم الإسلامي من مواكبة العصر، والتماشي مع متطلّباته[60].

ومن أجل إنجاح العملية الإصلاحية كذلك، أكّد على وجوب الإقتداء بالتجارب الغربية التي خاضوها في سبيل نهضتهم، مادامت غير مناقضة للمدنية الإسلامية، فهو بعدما اقتفى مقّومات ومراحل النّهضة الأوربية من خلال رحلاته العديدة لأوربا، وإطّلاعه على أفكارها وأنظمتها، ولمس إيجابياتها، تمنّى أن تقتدي البلدان الإسلامية بتلك الأعمال النّظامية والسياسية بما فيه خير للأمّة[61]. ومن ناحية أخرى هاجم الذين أعرضوا عن الأخذ من الغرب, مؤكّدًا بأن الشّريعة الإسلامية لا ترفض التمدّن، بل تأمر بطلب أركانه ومقوّماته, وتحث على طلب الحكمة أينما وجدت[62].

إنّ أهم ما دعا إليه حمدان هو نبذ التعصّب والانغلاق اللّذان ساد العالم الإسلامي آنذاك، نتيجة لموقف المحافظين, خاصّة من رجال الدّين المتعصّبين الذين أخذوا بظاهر الشّريعة الإسلامية دون فهمها فهمًا صحيحًا، فأغلقوا باب الاجتهاد، والتزموا بالتقوقع حول الذّات، وأعرضوا عن العلوم العصرية، واعتبروا أن كل ما أُخذ من غير مسلم هو كفر[63]، فحمدان هاجم هؤلاء واعتبر أن كلّ من أنكر ما وصل إليه الغرب في العلوم والصنائع والتنظيمات فإن مبناه الجهل

والتعصّب، لذلك حثّ على الإقبال على علوم الغرب وتنظيماته، بعدما أن نتخيّر منها ونتأكد من عدم معارضتها للشّريعة الإسلامية[64].

ومن أجل ذلك ناشد حمدان السلطان العثماني والحكّام المسلمين بأن يبادروا إلى الانفتاح والإصلاح، وأن يسرعوا إلى وضع حد للأعمال العقيمة التي كان يمارسها هؤلاء الجامدون، لأن الحد من نشاطهم هو بوابة لإصلاح المجتمع الإسلامي، ومنطلق لتحضّره، فقال في هذا الشأن: "يجب على السلاطين وأولى الأمر أن يبادروا إلى إصلاح ما يُدخل عليهم الضّرر (الرّعية)، ولا يُرخَّص لهم أن يساعدوا الجهّال على تصلّبهم وجهلهم..."[65].

ومن نشاطات حمدان الإصلاحية كذلك، هو إلحاحه على الباب العالي والحكّام المسلمين بالسّير على خطى الأوربيين في المجال الصحّي (الطبّي)، خاّصة لما لحق بالشّعوب الإسلامية آنذاك من أمراض وأوبئة، ألحقت أضرارًا فادحة في الأرواح البشرية، ولتجنّب ذلك دعا إلى تطبيق الحجر الصحّي[66]، الذي كان معمولاً به في أغلب البلدان الأوربية، وأرجع أسباب عدم تطبيقه في البلدان الإسلامية إلى إعراض بعض المتعصّبين عن ذلك، باعتبار أن الطّاعون والأوبئة مقدّرة ولا داعي للاحتماء منها، كما أن وسيلة التداوي غير مقبولة في نظرهم لأنها جاءت من عند الكفّار، وهو رأي استنكره حمدان بشدّة مؤكّدًا بأن الحجر الصحّي لا يتناقض مع الدّين الإسلامي، فالمرض له مسبباته، وبتجنّب تلك المسبّبات نتجنّب المرض[67].

واصل حمدان مساعيه الإصلاحية، حتى أثناء وقوع بلاده تحت الاحتلال الفرنسي، فمن أجل تحقيق آماله في أن يرى بلده وطنًا مستقلاّ وحرًّا ومواكبًا للعصر، وكثّف من نشاطه الإصلاحي والفكري والنضالي، فاستغاث بالسلطان العثماني، وطرح عليه رؤية إصلاحية تخلّص الجزائر من الاستعمار، وترقى بها إلى مصاف الدوّل الديمقراطية الحديثة، فاقترح على السلطان بأن يُعيّن حاكمًا على الجزائر، يكون من أبنائها حتى يطيعه الشعب، وأن يكون هذا الحاكم عادلاً، ثم يتم تعيين مجلس شورى (مشابه للمجالس النيابية في أوربا)، يتكوّن من أربعة عشر عضوًا يستشيرهم هذا الحاكم ويكونون عونًا له في تسيير شؤون البلاد، ومن خلال هذه الأطروحات يتّضح بأن حمدان كان يطمح إلى إقامة دولة عصرية ديمقراطية تكون مبادئها مشابهة للأنظمة الأوربية ومطابقة للشّريعة الإسلامية[68].

وفي إطار سعيه دائمًا إلى إقامة دولة جزائرية عصرية ومستقلّة، قاوم الاحتلال الفرنسي لبلاده، وأكّد لهذا الاحتلال بأنّه لن يتمكّن من إدخال المدنية الغربية إلى الجزائر، ولن يتمكن

من إخماد ثورة الشّعب، وقبل التفكير أصلاً في ذلك، يتحتّم على فرنسا أن تحقّق المسألة تحقيقًا فلسفيًا، بدون أي غرض ولا تمييز في الأديان أو اللّباس، وأن تعتبر الشّعب الجزائري جزءًا من أبناء الإنسان[69]، وأن تغيّر من سياستها ونمط حكمها، وتجعله قائمًا على العدالة الاجتماعية والقوانين الإنسانية[70].

كما أكّد حمدان على أن المحاولات التي سوف تقوم بها فرنسا لمعالجة الوضع في الجزائر سوف تؤول كلّها إلى الفشل، لأن الحل الوحيد للمشكلة الجزائرية، هو انسحابها منها، وتخلّيها عن أفكار الغزو، وأن تسمح بتأسيس حكومة جزائرية حرّة، يحكمها أميرًا مسلماً، معروفًا بحنكته السياسية، ثم تُبرم معه اتفاقاً، وبشروط تتلاءم مع مصالح الشعبين الجزائري والفرنسي، ففرنسا كانت قد نجحت في تطبيق هذا الأسلوب في مصر، وهو أسلوب أثبت نجاحه، وهذه هي الوسيلة الوحيدة والمثلى التي تستطيع من خلالها إدخال المدنية إلى الجزائر، لهذا طالب من السلطات الفرنسية وبصراحة بتطبيق ذلك: "من الأحسن لفرنسا أن تُخلي البلاد من جنودها، وتترك الحكم لسكّانها... فنحن في عصر لا يسمح لأي دولة بأن تستعمر أي شعب من الشّعوب"[71].

تنمُّ كل هذه الأفكار التقدّمية التي طرحها حمدان والتحليل العميق لدقائق الأمور عن شخصية متفتّحة، لها معرفة عميقة لمكونات المجتمع الإسلامي، والمجتمع الأوربي، وأجهزته الحاكمة، كما نستنتج من خلال عرضنا لأفكاره ومواقفه ونشاطه، أنه غذّى فكره السياسي النّهضوي، بالفكر الإسلامي وبمبادئ الثورة الفرنسية، وقيّم المدنية الحديثة، فصنع هذا المفكّر مواقف تمثّل نقلة واضحة في الفكر النّخبوي العربي, تجمع بين التجديد والانفتاح من جهة, والتمسّك بالشّريعة الإسلامية والثقافة العربية من جهة أخرى، فحمدان من أولى الشخصيات العربية التي دعت إلى إدراك الذّات، وتفطّنت إلى أهمية إدراك وفهم الآخر، والاستفادة منه، فهو من الذين فهموا بأن فهم الآخر والاستفادة منه لا تنجح إلا من خلال فهمنا لأنفسنا ولثقافتنا، ومعرفة نقائصها لاستدراكها وإيجابياتها لتثمينها، فدعا إلى خوض إصلاحات جدّية، غير أن دعوته لم تحظ بتأييد أو تطبيق في العالم الإسلامي الذي كان يغوص في غياهب الظّلمات، ويئن تحت نير الهيمنة الأوربية[72].

– الهوامش:

I) – هو حمدان بن عثمان خوجة، جزائري المولد والنشأة، كرغلي الأصل، وهو من أبرز أعلام الفكر والنّضال السياسي في المغرب الإسلامي خلال القرن 19م، اشتهر بدفاعه المستميت عن الجزائر المحتلة بفكره وقلمه، ولد بالجزائر العاصمة حوالي سنة 1875، وهو من عائلة ذات وجاهة عظيمة مالاً وثقافةً، تلقّى مبادئ تعليمه الأولى على يد والده الذي أرسله فيما بعد إلى الأستانة لطلب العلوم وممارسة التجارة. ولّما عاد إلى الجزائر واصل دراسته مستعينًا بوالده، فتلقى أصول إدارة الحكم التّركي وأصول الفقه والفلسفة، والطب. تقلّد عدة مناصب إدارية حتى عُيّن مستشارًا للدّاي حسين، وكان همزة وصل بين الجزائر والدوّل الأوربية لأنه يتقن لغتها. بالإضافة إلى مستواه العلمي, كان حمدان ميّالا للتجارة والأسفار وهوّ ما ساعده على توسيع ثقافته وتنوّر أفكاره جرّاء احتكاكه بالمدنية الأوربية واختلاطه برجال الفكر والسياسة، فتعدّدت حدود ثقافته، وبعد وقوع الجزائر تحت نير الاحتلال الفرنسي تجنّد للدفاع عنها بفكره وقلمه الذي سخّره للمطالبة بحقوق أبناء وطنه المسلوبة، ولكشف فضائح الاحتلال، ومن أجل إيصال صوته إلى الرأي العام الفرنسي والعالمي، رحل إلى باريس عام 1833م وبها وجّه العديد من الرّسائل والعرائض والتقارير إلى رجال السياسة والفكر ليلتفتوا إلى قضية الجزائر، وأمام إصرار فرنسا على احتلالها الجزائر, غادر حمدان باريس عام 1836م، متّجهًا إلى القسطنطينية فاستقرّ بها إلى أن وفاه الأجل في أواخر 1840م، تاركًا ورائه إرثًا فكريًا زاخرًا مفعمًا بأفكار نضالية تضمّنتها كتبه ورسائله . أنظر:

– محمّد بن عبد الكريم، حمدان خوجة ومذكّراته, دار الثقافة للطبع والنّشر, بيروت, 1972.ص. 73 ــ 93، أنظر أيضًا:

- Mahfoud Kaddache, L'Algérie dans l'histoire, tom 5, entreprise national du livre, Alger, 1989, p. 14.

2) – عبارة عن رسالة ألّفها حمدان باللّغة العربية، وبعدما أن فرغ من تأليفها عام 1837م، قدّمها إلى السلطان محمود الثاني. كان دافعه لهذا التأليف هو لما رآه من تزمّت لدى بعض المسلمين ورفضهم للاجتهاد ولكلّ ما جاء به الغرب من علوم وتنظيمات حتى وإن كان في ذلك رقيّ لأمّتهم وصلاحها، فألّف حمدان هذه الرّسالة ليحثّ فيها المسلمين على اليقظة، والأخذ بمعالم الحضارة الأوربية، وثمار تجاربها، خاصّة في مجال الوقاية من الأمراض وطرق علاجها . أنظر:

ــ حميدة عميراوي، « حمدان خوجة, حياته وآثاره », مجلّة الثقافة, منشورات وزارة السياحة والثقافة, الجزائر, عدد 90, نوفمبر– ديسمبر, 1985, ص. 111

3) ــ حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء، تحقيق وتقديم محمّد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنّشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص. 45.

4) - George Yver, " Si Hamdan ben Othman Khoudja " , revue Africaine , n° 57, 1913 , p. 97.

5) - Ibid, p. 110.

6) ــ بن عبد الكريم، حمدان خوجة ومذكّراته ... المرجع السّابق، ص. 91 ــ 107.

7) ــ حمدان خوجة، إتحاف المنصفين ... ، المصدر السابق، ص. 145.

8) ــ بيشون (Pichon) عيّن مقتصدًا مدنيًا للجزائر عام 1831، كتب عن أهم الأحداث التي جرت بالجزائر في الأيّام الأولى من الاحتلال، عُرف بالتزامه في كتاباته عن الجزائر بشيئ من الموضوعية ، وقد شهد له بذلك حمدان خوجة في كتابه المرآة. وله مؤلّفات كثيرة عن الجزائر, أهمّها المؤلّف الذي دلّنا عليه حمدان في كتابه المرآة, وهو: Alger sous la domination Française, son état présent et son avenir . أنظر:

– حمدان خوجة, المرآة, (لمحة تاريخية وإحصائية عن إيّالة الجزائر), عرّبه وعلّق عليه محمّد بن عبد الكريم, منشورات دار مكتبة الحياة, بيروت, 1972, ص.ص. 18, 276 – 277 .

9) ــ بن عبد الكريم، مرجع سابق, ص. 108، وهو ما يؤكّده بيشون (Pichon, Baroun) في كتابه :

- Alger sous la domination Française, Imprimerie de J.Dibot Ainé, Paris, 1833, p . 127.

10) ــ بن عبد الكريم، نفسه, ص. 90.

11) ــ حمدان خوجة، إتحاف المنصفين ... مصدر سابق, ص. 48.

12) ــ عميراوي، مرجع سابق, ص. 108.

13) ــ هو كتاب يعالج قضايا تاريخية وسياسية وفكرية، ألّفه حمدان خوجة بباريس في جويلية 1833، باللّغة العربية، ثمّ ترجمه إلى اللّغة الفرنسية صديقه حسونة دغيس (وزير الخارجية لحكومة طرابلس)، والكتاب الأصلي الصادر باللّغة العربية مفقود، وعثر فقط على النّسخة المترجمة إلى اللّغة الفرنسية تحت عنوان:

Aperçu Historique sur la régence d'Alger, intitulé en arabe (le miroir), par sidi hamdan ben othman Khodja, …, traduit de l'arabe par : H D Oriental)

ومن خلال هذا العنوان الطويل نفهم أنّ العنوان الأصلي للكتاب هو le miroir (المرآة). عالج حمدان من خلاله مسائل تاريخية، وتناول فيه قضايا اجتماعية ومفاهيم فلسفية، قسّمه إلى مقدّمة وكتابين وملحق، ففي المقدّمة تحدّث عن الشّعب الجزائري الخاضع لظلم الاستعمار وقارنه ببقية شعوب العالم التي تنعم بالحرية، وفي الكتاب الأول تحدّث عن سكّان البلاد الجزائرية وعاداتهم ومنتوجاتهم وأصنافهم، أما في الكتاب الثاني فقد تحدّث فيه عن الحكم التركي والاستعمار الفرنسي للجزائر ووصف وحشيته، أمّا الملحق فهو عبارة عن مجموعة من الرّسائل والشكاوي والعرائض،وكان يهدف من خلال تأليف كتابه هذا إلى إطلاع الرأي العام على الأحداث الجارية في الجزائر, من أعمال وحشية ارتكبت على أيدي السلطة العسكرية الفرنسية، وتحت غطاء الدّولة التي تدّعي المدنية, واطلاعهم على تاريخ الشّعب الجزائري وطبائعه التي تأبى الخضوع لمن يخالفهم في الجنس والدّين . أنظر:

ــ بن عبد كريم، مرجع السابق, ص. 119 ــ 125.

14) - George yver , op , cit, p. 97.

15) ــ حمدان خوجة، المرآة, مصدر سابق، ص. 105.

16) ــ بن عبد الكريم، مرجع سابق, ص. 195 ــ 196.

17) – حمدان، ص. 105

18) ــ نفسه، ص. 304 (عبارة عن عريضة وجّهها حمدان إلى رئيس الوزراء الفرنسي في 09 جويلية 1883) .

19) - Gabriel Esquer, Correspondance du général Voirol, Librairie de la société de l'histoire de la France, Paris, 1924, p. 213.

20) ــ حمدان، المرآة، مصدر سابق, ص. 18.

21) ــ رسالة حمدان خوجة إلى أعضاء اللجنة الإفريقية.

22) ــ حمدان, المرآة، مصدر سابق, ص 5.

23) ــ نفسه، ص.307، (رسالة وجّهها حمدان إلى رئيس الوزراء ووزير الحرب سولت، في 09 جويلية 1833).

24) ــ نفسه، ص. 18.

25) ــ بن عبد الكريم، مرجع سابق, ص. 190 ــ 194.

26) ــ نفسه، ص. 87ــ 88.

27) ــ مصطفى الأشرف، " من زعماء المقاومة في المدن، سي حمدان بن عثمان خوجة "، مجلّة المجاهد الثقافي، إصدار جبهة التحرير الوطني، عدد 323، 10 جويلية 1966، ص. 19.

28) – أبو القاسم سعد الله, « التثاقف السياسي والفكري » مجلّة مجمّع اللّغة العربية, القاهرة, عدد 96, أفريل, 2002، ص. 81 –82.

29) ــ حمدان، إتحاف المنصفين ... ، المصدر السّابق, ص. 47.

30) ــ عبد الرّحمان بن محمّد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج. 4، دار الأمّة ، ط. 08، الجزائر، 2008، ص. 255.

31) – حمدان, إتحاف المنصفين ...، ص. 44.

32) ــ نفسه ص.ص. 72 ــ 73 ، 155 ــ 156.

33) – محمّد بن محمود العنّابي، ولد بمدينة الجزائر عام 1775م، اشتهر بتنقلاته بين المشرق والمغرب واستانبول، وهو فقيه حنفي وقاض وكاتب في العهد العثماني، دعا إلى التجديد الإسلامي، والإصلاح الاجتماعي والسياسي، وإلى الانفتاح على علوم وصنائع أوربا. بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر نفاه الفرنسيون منها، فتوجّه إلى مصر، أين ولاّه محمّد علي حاكم مصر الفتوى الحنفية، ووجد هناك الجو الملائم لطرح أفكاره، بحكم أن سياسة محمّد علي كانت تتّجه إلى الانفتاح على الحضارة الأوربية، أنظر :

ــ علي علواش وآخرون، معجم مشاهير المغاربة, إعداد فرقة البحث العلمي بجامعة الجزائر, الجزائر, 1995, ص. 393.

34) ــ ألّفه ابن العنابي عام 1826، أثناء تواجده بالقاهرة، وكان ذلك في عهد محمّد علي الذي سار في سياسة الانفتاح على التقدّم الأوربي، فوجد ابن العنابي الجو ملائمًا لطرح أفكاره بحرّية، والمتمثّلة في وجوب تعلّم الحضارة عن الأوربيين، وهي أفكار تُعد جريئة في ذلك الوقت، قسّم ابن العنّابي كتابه إلى مقصدين :

المقصد الأوّل في الأمور الحربية، والمقصد الثاني في الأمور السياسية، ثم ختمه بخاتمة، غير أن المقصد الأوّل هو محور الكتاب فكرًا وحجمًا ، تمحورت أفكار الكتاب على ثلاث أفكار رئيسية، أوّلها حديثه عن الأمور الحربية، وفي الفكرة الثانية تطرّق لدور العثمانيين التاريخي، أمّا الفكرة الثالثة والأساسية، فهيّ تدور حول جواز تعلّم العلوم الآلية عن الأوربيين. نسخ هذا الكتاب عام 1852 بالقاهرة. أنظر :

ــ سعد الله, رائد التجديد الإسلامي، محمّد ابن العنابي، صاحب السّعي المحمود ... ، ط.2،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص. 57 ــ .64

35) ــ سعد الله, المرجع السّابق, ص. .60

36) ــ محمّد بن محمود ابن العنّابي، السعي المحمود في نظام الجنود، تقديم وتحقيق محمّد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1993، ص. 49 – .52

37) ــ عميراوي، مرجع سابق, ص. .115

38)- رسالة حمدان خوجة إلى السّلطان العثماني.

39) ــ عميراوي، نظرة حمدان خوجة الجزائري إلى الآخر ...، المرجع السابق, ص. 111ــ .112

40) ــ بن عبد الكريم، حمدان خوجة ، حياته و آثاره ...، مرجع سّابق, ص. .118

41) ــ نفسه, ص. 195 ــ .196

42) ــ رسالة حمدان خوجة إلى اللجنة الإفريقية، أنظر :

- George Yver, op , cit p 110.

43) ــ حمدان، المرآة، مصدر سابق, ص. .105

44) ــ بن عبد الكريم، مرجع سابق, ص. .154

45) ــ حمدان, ص. 169، أنظر أيضًا:

Charles Ageron, Histoire de L'Algérie Contemporaine , collection de (que - sais- je ?) P.U.F. 1980, p.p. 07- 10.

46) ــ بجزرة العوفية (1832)، تم إبادة هذه القبيلة من طرف الجيش الفرنسي، والسبب هو أن جواسيس فرحات بن السعيد (عميل فرنسا) قد سُرقوا بهذه المنطقة على يد بعض الأعراب، ولما علم دورفيقو، أرسل فرقة من الجنود أفنت القبيلة عن كاملها، أنظر:

- 23George Yver, op , cit p I.

- تحدّث كذلك عن هذه المجزرة (بيشون Pichon) في كتابه (Alger sous la domination Française) , وتحدّث عنها حمدان خوجة في مذكّرته (التي نشرها بن عبد الكريم في كتابه, حمدان خوجة ومذكّراته, مرجع سابق, ص. 210).

47) ــ حمدان، مصدر سابق, ص.ص. 170 , .224

48) ــ بن عبد الكريم، مرجع سابق، ص. 196.

49) – رسالة حمدان إلى اللّجنة الإفريقية .

50) حمدان, ص. 257 , .268

51) ــ نفسه, ص. 18.

52) ــ نفسه، ص. 325 (رسالة حمدان إلى المقرّر لمجلس الدّولة الفرنسي) .

53) ــ نفسه، ص. 211 , 277.

54) ــ نفسه، ص. ص. 18 ــ 21 ، 179- 180.

55) ــ محمّد الطيب عقّاب، حمدان خوجة, رائد التجديد الإسلامي، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1985، ص. 43 ــ 44.

56) ــ حمدان, ص. 19 ــ .21

57) ــ رسالة حمدان إلى اللجنة الإفريقية .

58) ــ جمال الدّين الأفغاني، (1839 ــ 1897)، من أشهر رجال الإصلاح في القرن 19م، تجنّد لنشر رسالته التحذيرية من التخلّف الذي يعانيه العالم الإسلامي، والخطر الاستعماري الذي يتربّص بالمسلمين، داعيًا إيّاهم إلى التمسّك بالشّريعة الإسلامية وإعادة إحياء مبادئها ومسايرة الغرب في تطوّره اتّقاءًا لخطره. واجه الاستعمار بقلمه وفكره بكل جرأة قد تكون فريدة في تاريخ الحركة الإصلاحية الحديثة، وأثناء تواجده بأوربا فيما بين 1883 ــ 1885، أنشأ علاقات مع المثقّفين الأوربيين وأجرى مقابلات مع عدّة صحف أوربية. أنشأ بمعيّة محمّد عبده (تلميذه وزميله في الإصلاح) صحيفة العروى الوثقى عام 1884، والتي كانا ينشران فيها أفكارهما الإصلاحية, كما قام بإنشاء عدّة جمعيات عبر العالم الإسلامي أثناء أسفاره ورحلاته به. وافته المنية في الإستانة عام 1897 . أنظر:

ــ مولود عويمر, أعلام و قضايا في التاريخ الإسلامي المعاصر، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص. 79 ــ 88.

59) ــ عميراوي، مرجع سابق, ص. 117 ــ 120.

60) ــ رسالة حمدان إلى الباب العالي .

61) ــ بن عبد الكريم، مرجع سابق, ص 90.

62) ــ حمدان، إتحاف المنصفين ...، مصدر سابق, ص 44.

63) ــ عميراوي، نظرة حمدان خوجة إلى الآخر (أوربا نموذجا)، في كتاب الشرق والغرب, مرجع سابق, ص. 461.

64) ــ حمدان، إتحاف المنصفين ... ، ص. .44

65) ــ نفسه، ص. 78.

66) ــ الحجر الصحي : في وقت انتشرت فيه الأمراض والطّاعون، فرضت بلدان أوربية على المسافرين القادمين إليها الخضوع إلى الاحتجاز في مراكز خاصة لمدّة تصل إلى أربعين يومًا، وذلك للتأكّد من خلوّهم من الأمراض المعدية، ثم يطلق سراحهم بعد ذلك، وهي بذلك طريقة وقائية تمنع انتشار الأمراض المعدية.

67) ــ حمدان، مصدر سابق, ص. 143.

68) ــ رسالة حمدان إلى الباب العالي.

69) ــ بن عبد الكريم, حمدان بن عثمان ومذكراته ...، مرجع سابق, ص. 223.

70) ــ رسالة حمدان إلى اللجنة الإفريقية.

71) ــ حمدان، المرآة، مصدر سابق, ص. 275 ــ .276.

72) ــ التميمي عبد الجليل: بحوث ووثائق في التّاريخ المغربي, الجزائر, تونس, ليبيا, (1816-1871), ط.2, منشورات مركز الدّراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني, زغوان, 1985, ص.ص. 34 , 116.